الرحلات الحَجية للسقاط المشرفي
من خلال إجازاته العلمية

الباحث الأستاذ | **تقي الدين بوكعبر** | جامعة أحمد بن بلة وهران 01

لم يكن علماء الجزائر بمعزل عن الحراك الثقافي والفكري الذي عرفه العالم الإسلامي خلال الفترة الحديثة، فقد تاقت أنفسهم للاستزادة من العلم والعلو في السند، فكثيرون منهم رحلوا شرقا وغربا طلبا للإسناد العالي، وكانت رحلة الحج أفضل مناسبة من أجل تحقيق هذا الهدف من خلال الالتقاء بكبار علماء الأمة وزيارة أهم الحواضر العلمية آنذاك المتمثلة في القرويين والأزهر الشريف والحرمين الشريفين.

وتعتبر الإجازات التي تحصّل عليها علماء الجزائر أثناء هذه الرحلة، من بين أهم المصادر التي تساعد الباحثين على تحديد مسارها لما يعرف عن أصحابها من الدقة في التدوين عمن أخذوا عنهم من العلماء، وتعد إجازات السقاط المشرفي أهم وعاء يمكن من خلاله تحديد معالم شخصيته الفقهية ومكانته العلمية، هذه الإجازات التي لا تزال إلى يومنا هذا مخطوطة.

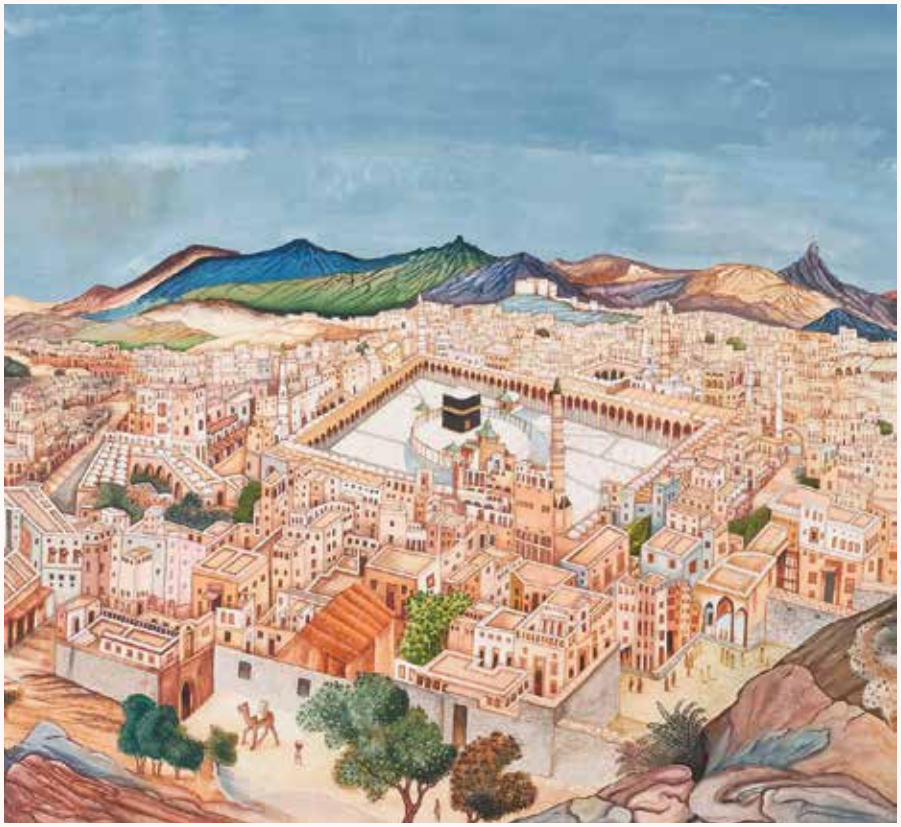

نسب أسرة المشارف

تعتبر أسرة المشارفة من أشهر الأسر بالغرب الجزائري بنسبها وحسبها وبأدوارها التاريخية، الاجتماعية والسياسية، قال **الرماصي**[1]: "هم -أي المشارفة- صالحون مبرزون في العدالة لا يتهمون في شيء من الأشياء لا في نسب ولا في غيره" [2]، وقال السيد **دح بن زرفة**[3] :"منهم -أي من المشارفة- رجال أعلام ذوو فضائل وأحلام ونهى وعلوم ضاهت بهم في المغرب ناحية الراشدية على الخصوص والعموم[4]"، ويقول **المشرفي** ما نصه: "فعلماء المشارف هم سيوف تلك الدولة وتحفة تلك العصابة وقضاة إيالتها وإليهم المرجع في الحل والربط والإتقان والضبط يحلون ويبرمون[5]"، ويقول صاحب القول الأعم متحدّثا عن أسرة الشيخ **المشرفي**: "كانوا معتبرين عند الملوك وكانت لهم ولاية الخطط الشرعية أيام الأتراك وأيام ابن عمنا

(1) مصطفى بن عبد اللّه بن محمد مؤمن الرماصي: عالم من فقهاء المالكية العلامة المتفنن المحقق النقاد المدقق له عدة تآليف منها: شرحه على متن السنوسية سماه "كفاية المريد على شرح عقيدة التوحيد"، وحاشيته على شرح التتائي لخليل، وحاشية على الخرشي، وله الهدية في أخبار الراشدية. ومما وقفتُ عليه من مؤلفاته كتاب فتاويه ونوازله. توفي سنة 1724م حسب صاحب معجم أعلام الجزائر، أو سنة 1723م حسب صاحب شجرة النور. الملاحظ أنه رغم شهرة الرماصي ومكانته العلمية إلا أن ترجمته في المصادر التي تمكنتُ من الاطلاع عليها قليلة، راجع في ذلك:
- أبو راس الناصر: فتح الإله، (ص82).
- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، أخرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، ط 01، ج1، دار الكتب العلمية لبنان 2002، (ص482).
- ج.دالفان: القول الأحوط ..، مخطوط مصور بمكتبتي، اللوحة 52 و81.
- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج 02، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة، ج 02، (ص588-578).
- عادل نويهض: نفس المرجع، (ص152).

(2) البيدري: تنوير قلوب أهل التقوى والمعارف بنسب سادات غريس الموسومين بالمشارف، مخطوط بمكتبة خاصة، اللوحة 3.

(3) من أشهر علماء وصلحاء الغرب الجزائري وإليه تنسب أسرة سيدي دحو التي لعبت أدوارا عسكرية وثقافية هامة خلال فترة الوجود التركي بالجزائري ولعل أشهر علماء هذه الأسرة السيد محمد المصطفى الدحاوي رفيق وكاتب الباي محمد بن عثمان الكبير فاتح وهران ومحررها من الإسبان سنة 1791م.

(4) البيدري: نفس المصدر، اللوحة 04.

(5) العربي المشرفي: الرد على أبي راس الناصر، اللوحة 02.

الأمير وغيرهم من أبناء عمهم[6]"، فكثير من علماء المشارف كانوا قضاة وكتاب سواء في العهد العثماني أو في دولة الأمير عبد القادر.

ترجمة السقاط

بن عبد اللّه السقاط وهو الحافظ الحجة شمس الدين[7] العلامة عبد القادر بن مصطفى بن الشيخ المشرفي[8] شيخ الإسلام بوهران ومعسكر[9]، اختُلِفَ في ضبط اسم شهرته فقال بعضهم: سقط، وقال آخرون: **السقاط**[10] وقال بعضهم أيضا: **ساقاط**[11]، وأصل هذه التسمية أنه كان راكبا على حصانه فضربه سبع فسقط فسمي كذلك[12]. كان متضلعا في جميع الفنون كالفقه والحديث والمنطق والعروض والنحو والشعر[13]. من بين شيوخه الشيخ **أبي راس الناصر**[14].

تولى القضاء بمعسكر سنين عديدة[15] وفي هذا الصدد يشير **دوماس** في مراسلاته أنه عزل من منصب القضاء بسبب عدم عدله في أحكامه التي كان يصدرها[16]، ولا أظن هذه التهمة تثبت عليه، ودليل ذلك أن **دوماس** صرح أن **السقاط** كان مع الاحتلال[17]، والواقع التاريخي يكذب هذا الادعاء، حيث بقي مع الأمير لآخر لحظة من جهاده. ويعتبر السقاط من رجال **الأمير عبد القادر** حيث أرسله بهدايا إلى ملك المغرب ومعه نص سؤال حول قضية المتعاملين من الجزائريين مع المحتل الفرنسي، هذا في 19 ذي الحجة 1252هـ/1837م[18]، يشير **بيلار** أنه كان للسقاط رحلة قبل أن يبعثه الأمير كسفير للمغرب كان ذلك سنة 1832م وأنه تحصل من ملك الغرب على ظهير ملكي يعفيه من الضرائب هو وكل ذرية **عبد القادر المشرفي**[19]، لكنه آثر الرجوع إلى موطنه وبايع **الأمير عبد القادر** على الجهاد والسمع والطاعة وبقي معه حتى آخر أيامه. يقول **الشقراني** في حق السقاط واصفا إياه حين بايع الأمير: "علاّمة الدهر الملقب بسقاط ذي العلم الذي ليس فيه تخفي والقوة والبسالة والمثابرة والحزم والشهامة والكر على العدو بالمداومة وشدة الإقدام والضرب بالحسام فلا عين رأت ولا أذن سمعت فلله دره"[20]. وهذا ما يفند مزاعم **دوماس** من أن السقاط كان مع الاحتلال الفرنسي للجزائر. توفي سنة 1270هـ/1853م[21] بمكناس قيل مسموما وقيل مخنوقا، ودفن قرب ضريح الشيخ **أبي عبد اللّه محمد بن عيسى**[22].

(6) بلهاشمي بن بكار: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون تلمسان الجزائر 1961، ص335.
(7) العربي المشرفي: ذخيرة الأواخر، (ص73).
(8) أشار بعضهم إلى اسمه فقال: بن عبد اللّه بن مصطفى بن الشيخ بن عبد اللّه المشرفي الهاشمي؛ لكن بعد التحقيق يظهر أن اسمه كما ثبته في المتن، انظر:
- فارس كعوان: المرجع نفسه، (ص220).
(9) العربي المشرفي: الرد على أبي راس الناصر، اللوحة 10.
(10) انظر كل من:
- العربي المشرفي: ذخيرة الأواخر، (ص73).
- العربي المشرفي: ياقوتة النسب، اللوحة 20.
- العربي المشرفي: الرد على أبي راس الناصر، اللوحة 10.
- محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، ط02، ج01 و02، دار اليقظة بيروت 1964، (ص206).
- الأغا بن عودة المازاري: طلوع سعد السعود، ج01، (ص99).
- أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي لبنان 1999، ط01، (ص36).
- يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة، (ص232).
(11) انظر كل من:
- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي: الحلل البهية، (ج01 ص57).
- العربي بن عبد اللّه المعسكري: نفس المصدر، (ص68).
- بلهاشمي بن بكار: نفس المصدر، (ص334).
(12) عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس، (ج01، ص577).
(13) محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي: المصدر نفسه، (ج01 ، ص57).
(14) العربي المشرفي: الرد على أبي راس، اللوحة 12.
(15) العربي المشرفي: ياقوتة النسب، اللوحة 20.
(16) Georges Yver ، Les correspondances du capitaine daumas 1837_1839، Editions el maarifa ، Alger 2008، p 613.
(17) YEVER G OP.CIT: p 613.
(18) محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر (ج1، ص206).
(19) MICHAUX BELLAIRE : les musulmans d algerie au maroc archives marocaines v XI ، n 01 ، P 63-64.
(20) أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: المصدر نفسه، (ص36).
(21) ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق على عمر، ج05 ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 2008، (ص419).
(22) عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس، ج01، (ص578).

وصف الإجازات

وقفت على بعض إجازات العلماء له وهي 11 إجازة، بنفس الخط المغربي وهي:

- إجازة الشيخ الهادي بن محمد الشريف الحسني.
- إجازة الشيخ صالح محمد بن إبراهيم الزمزمي.
- إجازة السيد عمار بن محمد منصور الشريف الحسني المالكي القسنطيني.
- إجازة الشيخ محمد حسين الميقاتي المالكي الإسكندري.

إجازة الشيخ محمد الشنواني الأزهري[23].

- إجازة الشيخ حسين كريت المصري[24].
- إجازة الشيخ محمد بن محمد بن صالح الشعاب الأنصاري المدني الحنفي[25].
- إجازة الشيخ عمر بن عبد الكريم العطار[26].
- إجازة الشيخ علي بن محمد الميلي[27].
- إجازة الشيخ صالح بن حسن الكواشي التونسي[28].
- إجازة الشيخ حسين بن مصطفى بن خليل التونسي[29].

رحلة المشرفي من خلال الإجازات

بتتبع ما ورد في هذه الإجازات يمكن تقسيم مسار رحلة السقاط إلى الحج إلى رحلة الذهاب ورحلة الإياب وهذا على النحو التالي:

في رحلة الذهاب أول مكان تشير إليه الإجازات هو قسنطينة التي زارها بتاريخ 1229ه حيث أجازه الشيخ الهادي بن محمد الشريف الحسني القسنطيني إجازة عامة في المعقول والمنقول والفروع والأصول بتاريخ أواخر جمادي الأولى 1229هـ/ 17 ماي 1814م. ثم إلى مكة حيث أجازه الشيخ **محمد بن محمد بن صالح الشعاب** الأنصاري المدني الحنفي في 19 ذي القعدة 1230هـ/22 أكتوبر 1815م، كذلك أجازه بمكة الشيخ صالح **محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد اللطيف بن عبد السلام الزمزمي** المكي مفتي الشافعية بمكة وكذلك أجازه بها الشيخ عمر بن عبد الكريم العطار في 13 ذي الحجة 1230هـ/15 نوفمبر 1815م.

أما في رحلة الإياب والتي كانت بتاريخ 1231ه فقد مر بقسنطينة مرة أخرى حيث أجازه السيد **عمار بن محمد بن منصور الشريف الحسني** المالكي القسنطيني أوائل رجب 1231هـ/27 ماي 1816م.

والأكيد أنه خلال رحلة الحج هذه قد زار المشرفي أماكن أخرى حيث تشير الإجازات إلى أنه زار الأزهر الشريف حيث أجازه الشيخ **محمد الشنواني**، وزار بلد الرشيد بمصر حيث أجازه الشيخ **حسن** كريت وكذلك زار الإسكندرية حيث أجازه الشيخ **محمد حسين الميقاتي** المالكي السكندري، والشيخ **محمد الميلي** دفين مصر، لكن هذه الإجازات لا تحمل تاريخ وقوعها ما يجعلنا نجهل هل كانت في رحلة الذهاب أو خلال رحلة الإياب من الحج. كذلك من المناطق التي زارها السقاط ومكث بها كثيرا تونس حيث أجازه كلٌّ من الشيخ **صالح بن حسن الكواشي** التونسي والشيخ حسن بن مصطفى بن خليل إلا أن هذه الإجازات هي الأخرى تخلو من تاريخ ما يجعلنا نجهل هل وقعت خلال رحلة الحج أم هي رحلة مستقلة.

أما عن رحلات الشيخ داخل الجزائر فهناك إجازة من الشيخ **مفتاح الدين بن حسام الدين الفرغالي**[30] وهذا بوهران في أوائل محرم 1243هـ/ 24-07-1827م.

أهمية الإجازات

إن هذه الإجازات لو جمعت لكانت ثبتا من أهم أثبات علماء الجزائر، وما أحوجنا اليوم إليها فيتم بها وصل الماضي بالحاضر، ويمكن تحديد أهمية هذه الإجازات في النقاط الآتية:

- تحديد المسار الجغرافي لرحلة السقاط المشرفي إلى الحج، فلا يوجد مصدر واحد أشار من قريب أو بعيد لرحلة السقاط إلى الحج وبالتالي فهذه الوثائق المصدر الوحيد الذي ينقل لنا مسار تنقلاته.
- تحديد نوعية العلوم التي أخذها المشرفي أثناء رحلته هذه، فمعلوم أن السقاط المشرفي حصّل قسطا وافرا من العلم قبل توجهه لأداء مناسك الحج، لكن ما ورد في هذه الوثائق يعكس مدى النبوغ العلمي الذي وصله المشرفي (رحمه اللّه) وكيف كان محل استقبال وترحيب من مختلف علماء الأمة الإسلامية.
- تعكس مدى تمسك المشرفي بنسبه الشريف من خلال تأكيده وذكره في كل هذه الإجازات.
- تحوي تراجم علماء جزائريين ومسلمين الذين أجازوا المشرفي، وإن كان جلهم مشهورا معروفا، مترجم له في أمهات الكتب.
- تحوي تراجم لعلماء جزائريين خاصة من أسرة المشارف مثل عبد القادر المشرفي الذي يظهر أن صيته كان واسع الانتشار.
- تعكس هذه الإجازات مدى التواصل الثقافي والحضاري بين المشرق والمغرب الإسلامي، فالرحلات الحجية لم تكن مجرد أداءٍ لمناسك الحج، وإنما كانت ولازالت أكبر تجمّع علمي لمسلمي العالم ينهل بعضهم من بعض، وتتبلور فيه الأفكار وتتلاقح، وتنشر فيه أصناف العلوم والمعارف.

(23) وصفه الكتاني في فهرس الفهارس (ج02 ص466) فقال : " محمد بن علي الشنواني العلامة أحد كبار علماء الأزهر وشيوخه المتوفى سنة 1233 له حاشية على مختصر ابن أبي جمرة للبخاري.

(24) نقيب أشراف رشيد المالكي المذهب الخلوتي الطريقة سيدي الشيخ حسن كريت.

(25) هو محمد بن صالح بن عبد الباقي بن أحمد الحنفي الشهير بالشعاب له شرح على ملحة الإعراب سماه: كشف النقاب، توفي بمكة في نيف وأربعين بعد المائتين والألف، انظر: الشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور التميمي: فتح الحميد في شرح التوحيد، تحقيق سعود بن عبد العزيز العريفي وحسين بن حلبيعب السعيدي، ط01، مج01، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، (ص57).

(26) عمر العطار (..1249-هـ) (..1833-م) عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار، المكي، الشافعي.محدث، مسند، توفي بمكة. من آثاره: ثبت صغير. انظر: رضا كحالة: معجم المؤلفين (ج7 ص293).

(27) علي بن محمد الميلي المالكي(ت1284هـ/1833م)، دفين مصر وميلي نسبة إلى ميلة انظر : الأعلام للزركلي (ج5 ص17).

(28) صالح الكواشي (1218-1137ه) (1803-1725م) صالح بن حسين الكواشي أبو الفلاح فقيه أصولي.
أصله من الكاف، وولد، وتعلم بتونس، ودرس بجامع الزيتونة، ورحل إلى طرابلس الغرب، وأزمير، والقسطنطينية، وعاد إلى تونس، وتوفي بها. له شرح الصلاة المشيشية. أشار الكتاني في فهرس الفهارس (ج01 ص369) أنه توفي سنة 1218هـ/1803م.

(29) قال عنه الكتاني في فهرس الفهارس (ج01 ص308): "هو العلامة الشيخ مصطفى بن خليل التونسي قرأ بالأزهر ومكة المكرمة وأجيز فيهما".

(30) لم أهتد إلى ترجمته لكن حسب الإجازة فإنه كان منفيا من وطنه إلى وهران حيث يقول في إجازته: "حين كان مبتليا بإخراجه من وطن الإقامة إلى محروسة وهران".

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

المركز الثقافي الإسلامي

العنوان: 12 شارع علي بومنجل - الجزائر العاصمة.

البريد الإلكتروني: centreculturelislamique@hotmail.com

الهاتف والفاكس: 02 99 73 021 / 79 89 73 021 / 28 90 73 021

facebook.com/ccialger16